

أولاً : الإطار النظري

يتناول هذا الجزء من البحث إيضاح مدى رعاية مجتمعنا المصري

الإسلامي لكبار السن، وذلك بشقيه الإسلامي والتربوي (بنوعين النظامي

واللائق) كما يلي:

١ - الرعاية الإسلامية لكبار السن :

لإيضاح الأهمية والمكانة التي يتمتع بها كبار السن في المجتمع

المصري، ومدى الرعاية التي وجهها الإسلام لهم، نتناول ذلك من خلال

ثلاث مرتكزات أساسية تشمل: مفاهيم إسلامية حول كبر السن، وأهم

التشريعات والتوجيهات الإسلامية لرعاية المسنين، وبعض النماذج

التطبيقية من القرآن والسنة، وكما يلي:

أ - مفاهيم إسلامية حول كبر السن:

١. ما هو حد كبر السن في الإسلام؟ لم يحدد القرآن سناً معيناً يبدأ فيه

كبر السن، وإنما عرض له في إطار عرضه لمراحل النمو الإنساني في

عدد من الآيات القرآنية (٢٠)، وكذلك لم يحدد حداً لنهايته، بل إن ذلك
من المغيبات الخمس التي حجبها الله عن البشر (٢١)، ومع ذلك فقد
خاض العلماء في تحديد بدء كبر السن وأرذل العمر بالسنين على عدة
أقوال (٢٢)

٢. كبر السن وطول العمر نعمة من الله تعالى : يشير القرآن الكريم لطول العمر باعتباره منة ينعم الله بها على عباده عساهم به يستدركون ما فاتهم في مقبله. قال تعالى: [بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر] (الأنبياء ، الآية ٤٤) في معرض الامتنان على أهل مكة بالإمهال واغترارهم به (٢٣). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خيركم أطولكم أعمارا وأحسنكم أعمالا" (٢٤)

٣. كبر السن مرحلة من مراحل نمو الإنسان تتميز بالضعف والاحتياج : يوضح القرآن أن كبر السن مستلزم للضعف البشري والاحتياج للغير. قال تعالى : [الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير] (الروم ، الآية ٥٤)، وضعف الشيخوخة ضعفا في الكيان الإنساني كله، فالشيخوخة انحدار للطفولة بكل ظواهرها (٢٥)، ولأنه إذا أصابه الكبر، وعجز عن الاكتساب كثرت جهات حاجته من مطعمه وملبسه ومسكنه، ومن يقوم بخدمته وتحصيل مصالحه. (٢٦)

٤. علو شأن المسن ومنزلته واستحقاقه للتوقير والاحترام : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ليس منا من لم يوقر الكبير، ويرحم الصغير، ويأمر بالمعروف، وينه عن المنكر" (٢٧). وقد جعل الإسلام لكبار السن مكانة رفيعة، ومنزلة عالية وأوجب تقديرهم واحترامهم، وفي المقابل احب لمن في هذه المنزلة ألا يأتي ما يخالفها "لا يحب الله الشيخ الجاهل" (٢٨). وفي الصحيح : "ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيمة ولا يزيكهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم .. شيخ زان" (٢٩)

٥. كبر السن لا يعني التقاعد عن العمل: كبر السن ليس مدعاة للتقاعد في الإسلام طالما الاستطاعة قائمة، والقدرة على العطاء مستمرة، وإن تحولت الأدوار، وقلت مشاركة الكبار العضلية لضعف أجسامهم، ووهن عظامهم، لكن يظل للكبار دورهم في الخبرة والحكمة وتدبير الأمور، ولم يعرف الإسلام في تاريخه التقاعد عن العمل بمفهومه الحالي (التقاعد الإجباري) (٣٠)، وإنما يعمل المسلم بقدر طاقته مدى استطاعته، ويلاحظ أن التقاعد الإجباري سبب في كثير من مشاكل كبار

السن في العصر الحديث لم تكن معروفة في المجتمعات الإسلامية قبله، فلم يعرف الإسلام التقاعد إلا مع العجز والوصول لأرذل العمر، ولذلك علمنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) التعوذ منها " اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم " (٣١) " اللهم اجعل أوسع رزقك علي عند كبر سني وانقضاء عمري " (٣٢).

٦. كبر السن ليس النهاية : الموت عند المسلمين لا يشكل النهاية للحياة الدنيا، وإنما هو تحول وانتقال من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة الخالدة، وهو في حياته الدنيا يعد نفسه للآخرة بصالح الأعمال، والتقرب إلى الله عز وجل، ويزداد هذا التوجه كلما كبر سنه، وشعر بدنو بدو أجله، وهذا مما يجعل شيخوخة المؤمن متوافقة، فيعطي نموذجا للتوافق المثالي للعيش مع كبار السن، قد يكون فيه الحل لكثير من مشاكل الشيخوخة التي لم يستطع علماء النفس والاجتماع تقديم تفسير لظاهرة التوافق الجيد، بما عرضه من نماذج قاصرة عن

تحقيق ذلك (٣٤) وقد سبق الإسلام بتشريعاته لذلك، ونعرض لأهم هذه التشريعات.

ب - أهم التشريعات والتوجيهات الإسلامية لرعاية المسنين :

١- حق المؤنة والنفقة : يقرر الإسلام حق المؤنة والنفقة لكل عاجز عن نفقة نفسه أو غير مستكف لها ينتقل واجب الإنفاق عليه لذويه من الأقارب، وكبار السن في مقدمة المستحقين لذلك إن عجزوا عن إعالة أنفسهم (٣٥). قال تعالى : [ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ، ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم]. (النور، الآية ٦١). أحد الأقوال في سبب نزول هذه الآية "أن قوما من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كانوا إذا لم يكن عندهم ما يطعمون المريض والزمن "الزمانة هو مرض يدوم زمانا طويلا، وضعف كبير سن أو مطاولة علة" (٣٦) ذهبوا به إلى بيوت آبائهم وأمهاتهم وبعض من سمي الله عز وجل في هذه الآية، فكان أهل الزمانه يتخرجون من أكل ذلك الطعام لأنه أطعمهم غير مالكة، فنزلت هذه الآية (٣٧) لتوسيع

دائرة التكافل مع هذه الفئة العاجزة، والآية دليل لمن يوجب نفقة الأقارب (٣٨)، والمؤنة الواجبة لمن تجب لهم تشمل : النفقة، والكسوة، والخدمة والسكن، وإعفاف الأب (بتزويجه والإنفاق على زوجته)، وكذا أجره الطبيب وثمان الأدوية حين يحتاج إليها القريب. (٣٩)

ونلاحظ أن هذا الحق لم يقتصر على الجانب المادي، وإنما تعدى الإنفاق إلى :

(أ) تحقيق رعاية شاملة اجتماعية ونفسية وصحية.

(ب) أن هذا الحق مكفول للأقرباء بعضهم على بعض دون وقوف عند مستوى معين من القرابة.

(ج) إن مسؤولية الولي الأقرب تتحقق بتكامل الأهل معه.

إن الإعالة الشرعية قائمة على المواسة غير المشروعة إلا بالحاجة، والإعالة القانونية الوضعية مردود باشتراك المؤمن عليه، ومقيدة بعدة شروط للمؤمن عليه والمستحقين بعده. إن الإعالة الشرعية بدافع رباط الرحمة والمودة والتكافل العائلي، والإعالة القانونية، وإن كان روعى فيه رابطة الدم إلا أنها تقتصر عما تحققه الإعالة الشرعية التي يراعى

فيها كفاية الحاجة من كل الجوانب، بينما الإعالة القانونية نفقة محددة

لا تلي في كثير من الأحيان الاحتياجات. (٤٢)

٢- تخفيف بعض التكاليف الشرعية مراعاة لكبار السن : تطبيقاً للقاعدة

الشرعية "المشقة تجلب التيسير" (٤٣) من ذلك نجد :

(أ) إسقاط فريضة الجهاد عن غير القادر عليها : قال تعالى : "[ليس على

الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج]" (النور ، الآية ٦١) ، و(الفتح،

الآية ١٧)، فأحد الأقوال في سبب نزول آية النور إسقاط الجهاد عن

أهل الزمانة المذكورين في الآية (٤٤).

(ب) التخفيف عن القواعد من النساء في وضع الثياب لما كانت المرأة

الكبيرة في السن قد تكون في حالة من الضعف محتاجة من يقوم على

خدمتها، وقد لا تجد إلا رجلاً من غير محارمها، وقد يشق عليها

الالتزام باللباس الشرعي كاملاً، خفف الله عنهم بقوله : " والقواعد

من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن

ثيابهن غير متبرجات بزينة" (النور، الآية ٦٠) أي ليس عليهن من الحجر في التستر كما على غيرهن من النساء (٤٥).

(ج) التخفيف عن المسن في العبادات : للمسّن الأخذ بما رخص فيه الشرع عند الحاجة له بسبب كبر سنه كالتحول من الوضوء أو الغسل للتيمم (٤٦)، وترك القيام في الصلاة إن عجز عنه (٤٧)، وإذا لم يطق الصوم أفطر وتحول للفدية، قال تعالى : [و على الذين يطيقونه فدية طعام مسكين] (البقرة، الآية ١٨٤)، فإن كلمة لا مقدرة أي لا يطيقونه، أو أن المراد يطيقونه حال الشباب ثم يعجزون عنه بعد الكبر (٤٨)، وفي الحج إن عجز بنفسه حالا ومالا لكبر أو زمانة، أو غير ذلك له أن يستأجر من يحج عنه، ودليل ذلك : (أن امرأة من خثعم قالت للرسول صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله إن فريضة الله تعالى على عباده في الحج أدركت وأبي شيخ كبير لا يثبت على الرحلة أو أحج عنه؟ قال نعم) (٤٩) وله أن يقدم بعض المناسك على وقتها مع الضعفة لقول ابن عباس (أنا فيمن قدم النبي صلى الله

عليه وسلم) في ضعفه أهله (٥٠)، ولن أن يوكل أو ينيب من يرمى عنه... وإلا يبببب بمنى (٥١).

(د) تخفيض التكاليف المادية الشرعية عن كبار السن إذا عجزوا عن أدائها : وذلك مثل إسقاط النذر إذا لم يستطع أن يؤديه. (مر النبي صلى الله عليه وسلم) بشيخ كبير يتهاذى بين أبنيه، فقال ما بال هذا؟ قالوا يا رسول الله نذر أن يمشى. قال إن الله عز وجل لغنى عن تعذيب هذا نفسه. قال فأمره أن يركب) (٥٢). وتخفيف الكفالة إذا لزمتم كبير السن، كما حدث مع أوس بن الصامت في مظاهرتة من امرأته والحديث طويل، ويعطى صورة تطبيقية للرعاية الأسرية لكبار السن واحتمالهم، ومن عبارات الحديث التي تخص كبار السن ورعايتهم (وكان شيخا كبير قد ساء خلقه.. وجعلت أشكو إليه سوء خلقه والرسول يقول: يا خويله ابن عمك شيخ كبير فاتقى الله فيه... فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم): مريه فيعتق رقبة، قالت: فقلت يا رسول الله : ما عنده ما يعتق. قال فيصم شهرين متتابعين: قالت : قلت والله إنه لشيخ كبير ما له صيام. قال: فليطعم ستين

ممكننا وسطة من تمر. قالت: قلت والله يا رسول الله ما ذاك عنده. قالت: فقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) فإننا سنعيّنه بفرق (وعاء من خوص مضفور) من تمر، فقالت: يا رسول الله وأنا سأعيّنه بفرق آخر. قال: قد أصبت، وأحسنْتَ فاذهبي فتصدقي به عنه، ثم استوصي بابن عمك خيرا، قالت، ففعلت). والفرقين أقل من الوسعة بكثير إذ هما عشر الوسعة (٥٣). وحق تخفيف الأعباء المادية عن كبار السن مكفول لكبار السن في المجتمع الإسلامي، سواء كانوا من المسلمين أو غيرهم، وقد حط عمر بن الخطاب الجزية عن اليهودي حين وجده يسأل الناس.. (ووضع عنه الجزية) عن ضربه وقد طبق هذا المبدأ أيضا خالد بن الوليد لأهل الحيرة (٥٤) وعمر بن عبد العزيز كان يرسل لعماله بدفع الجزية عن المسنين وإعالتهم من بيت مال المسلمين (٥٥) وهذه هي قاعدة التعامل في الإسلام (فالجزية لا تؤخذ من الشيخ الذي لا يستطيع العمل ولا شيء له) (٥٦).

هـ) رعاية كبار السن داخل أسرهم : يؤكد الإسلام على حق كبار السن في الرعاية الكريمة داخل أسرهم، وقد سبق في حديث المجادلة خويلة حث الرسول (صلى الله عليه وسلم) على حسن رعاية زوجها واحتماله، وكذلك حين سمح لزوجته هلال بن أمية أحد المخلفين في غزوة تبوك أن تقوم على خدمته، حين قالت : (إن هلال شيخ ضائع، وليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا) (٥٧) . ووصل الأمر إلى حد تعيين أحد أفراد الأسرة للقيام على خدمة الكبير إذا دعت الحاجة إلى ذلك (٥٨)، ومن أروع مظاهر الرعاية الأسرية لكبار السن داخل الأسرة رعاية الوالدين والتي اهتم بها القرآن والسنة النبوية.

ج - بعض الصور التطبيقية لرعاية كبار السن :

- ١ - رعاية الوالدين باعتبارهما نموذج لرعاية كبار السن : أشار القرآن للتوصية بالوالدين ووجوب الإحسان إليهما بتناول موضع واحد عوض فيه القرآن نموذج لرعاية الوالدين خاصة كبار السن : [وقضى ربك

ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ۖ وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا] *
 (الإسراء، الآية ٢٣ - ٢٥)، فأول الآيات وصية بالوالدين والإحسان بهما، ثم أمر بعدم أذيتهما ولو بشيء صغير حقير - أف - ولا تنهرهما بالكلام ضجرا ورفع الصوت .. وإنما نهى عن أذاهما حالة الكبر وإن كان منهما عنه على كل حال، لأن حالة الكبر يظهر فيها ما يضجر ويؤدي وتكثر خدماتها (٥٩)، ثم بعد النهي عن الإيذاء بيان لأسلوب المعاملة الحسنة وحسن الرعاية لهما " وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة". ثم دعوة وتعليم الدعاء لهما "وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا" وهو بر ورعاية تمتد إلى ما بعد الوفاة، فدعاء الولد الصالح لوالديه مما لا ينقطع بعد الوفاة (٦٠) وحتى لا تتأثر الرعاية سلبيًا بتكاليف شرعية أخرى جعل الشرع بر الوالدين مقدم على الجهاد (٦١) ومقدم على النوافل في العبادة

(٦٢)، والبر بهما واجب ولو كانا مشركين " وإن جاهدك على أن
تترك بي ما ليس لك به علم فلا تطعمها وصاحبهما في الدنيا معروفا"
(لقمان، الآية ١٥) (٦٣)، ومنع أن يكون الولد سببا للإضرار بالأب
أو الأم " لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده" (البقرة، الآية
٢٣٣). ومنع حتى الإيذاء غير المباشر من الولد لهما بأن لا يسب أبدا
أحد فيسب أباه (٦٤)، وجعل برهما طريقا للجنة (ألزمهما فإن الجنة
تحت أقدامهما) (٦٥) وبرهما سببا في إجابة الدعوى كما في حديث
الغار (٦٦) وجعل عقوقهما من أكبر الكبائر.